بين تيمورلنك وبايزيد

قصة الملك الأسير في فصل من حديد

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما زرت أنقرة عاصمة تركيا الجديدة منذ أعوام ، وتأملت المدينة الناشئة التي اختارها القدر لتكون مبعث حياة جديدة للأمة التركية ، تذكرت أن هذه الهضاب القفرة التي تحيط بالعاصمة التركية الجديدة كانت مسرحاً لحدث عظيم في تاريخ الدولة العثمانية ، وأنها إذا كانت اليوم مركز القوة والحياة في تركيا الجديدة ، فقد كانت ذات يوم مبعث الدمار والويل لدولة بني عثمان وكادت أن تكون قبراً لسلطانهم الناهض ومجدهم الفتي

كان ذلك في سنة ١٤٠٢ م ، حينما انقض تيمورلنك الفاتح التتري بجيوشه الجرارة على هضاب الأناضول كالسيل ، وحينما نشبت في هاتيك الهضاب الوعرة بينه وبين السلطان بايزيد الأول موقعة أنقرة الشهيرة التي سحقت فيها قوى آل عثمان وأسر ملكهم وأمراؤهم ، وكادت تمحى دولتهم من الوجود لولا أن تطورت الحوادث بعد ذلك بسرعة ، وتوفى الفاتح التتري بعد ذلك بقليل ، وانهارت دعائم ذلك الصرح العسكري الهائل الذي شاده تيمور بغزواته وفتوحاته وانتصاراته العظيمة

وكان تيمور قد بدأ حياة الفتح بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً ، وخرج من سمرقند عاصمة ملكه الناشيء يثخن في الأمم والممالك المجاورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ويفتتح قطراً بعد قطر ، ويسحق مملكة بعد أخرى ؛ فلم يمض على هذا البدء ثلاثون عاماً حتى استطاع أن يجتاح جميع الممالك الواقعة بين سمرقند والشام ، وبين قزوين والخليج الفارسي ، وأن يفتتح الهند وخوارزم وفارس والجزيرة والقوقاز وأرمينية ، وأن يبسط حكمه الشامل على تلك الممالك والأنحاء الشاسعة ، وأن يبلغ ذروة الظفر والسلطان الباذخ

وفي سنة ١٣٩٩ م خرج تيمور من سمرقند بجيشه الظافر لآخر مرة ؛ وكان قد نفذ إلى الهند قبل ذلك العام وأثخن في بسائطها وقواعدها ؛ واستولى على دهلي حاضرتها ، وتم بذلك افتتاحه لممالك آسيا الوسطى ؛ واخترق تيمور بجيشه الزاخر فارس واتجه نحو بلاد الكرج وأرمينية ؛ وكانت هذه المنطقة مثار خلاف دائم بينه وبين بني عثمان ، إذ كانوا يغيرون عليها من وقت إلى آخر ؛ وكانت أملاك تيمور وبني عثمان تلتقي هنالك عند أرضروم والفرات ؛ وزحف تيمور على سيواس ، وكان الترك العثمانيون قد احتلوها قبل ذلك بقليل ، واستولى عليها ؛ وبلغت هذه الأنباء سلطان الترك بايزيد الأول ، وهو معسكر بجيشه تحت أسوار قسطنطينية يحاصرها ، فلم يستطع شيئاً ؛ واخترق تيمور بلاد الأناضول ، وزحف نحو الشام وهي يومئذ ولاية مصرية ، يقصد افتتاحها ؛ ثم يفتتح مصر ؛ وبذلك يبسط سلطانه على الشرق الإسلامي بأسره . واستولى تيمور على مدينة حلب في مناظر هائلة من السفك والعيث والنهب ، وانقض سيل التتار المخرب على ربوع الشام يثخن فيها ويحمل أمامه كل شيء . وزحف الغزاة على دمشق في أوائل سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) ؛ فروعت مصر لهذه الأنباء ، وهرع ملك مصر الناصر فرج بجيوشه للقاء الفاتح التتري ونزل بدمشق في جمادى الأولى ، واشتبك جند مصر مع جند الفاتح في معارك محلية كانت سجالاً ؛ ولكن السلطان اضطر أن يعود فجأة إلى القاهرة لأنباء مزعجة نميت إليه فترك دمشق لمصيرها ؛ واستولى تيمور على دمشق صلحاً ، ولكنها لم تنج من سفكه وعيثه ؛ على أنه لم يمكث طويلاً بالشام إذ وصلته الأنباء عن أهبة بايزيد وحركاته ؛ فغادر الشام شرقاً إلى الفرات ، ثم سار شمالاً الى بلاد الكرج ، وأشرف مرة أخرى على حدود مملكة « الروم »

* * *

وهنا تبدأ بين هذين العاهلين العظيمين وقائع تلك المعركة الشائقة التي تسبغ عليها تفاصيلها لوناً من الخيال الساحر ، فقد استقبل تيمور سفراء بايزيد وأنبهم على مسلك مليكهم ، وكتب إلى بايزيد رسالة يلومه فيها على حمايته لبعض الأمراء الذين خرجوا عليه ، ويفاخره بفتوحاته الباهرة وسلطانه الباذخ ويحذره من سطوته وبطشه ويتحداه في عبارات جافية مثيرة ؛ فرد عليه بايزيد برسالته الشهيرة التي تذكرنا عباراتها وأسلوبها برسائل الملوك الأقدمين وعهد الأساطير ، وفيها يسخر منه وينتقص من قدره وقدر فتوحاته وغزواته ، وينسب توفيقه فيها إلى غفلة الزمن وإلى

ضآلة شأن خصومه ، ويحمل على و لله فى الحرب والسياسة ، ويرميه بالعدوان والغدر ، ويرى جنده ومواطنيه التتار بالعجز والخور ؛ وينوه بقوته ومقدر جنده ، وعظيم استعداده للحرب والطعان . على أنه ذلك لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك التحدى الغريب الذى اختتم به بايزيد رسالته إلى تيمور ، إذ يقول له : « فان لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثا ؛ وإن قصدت بلادى وفررت عنك ولم أقاتلك فزوجاتى إذ ذاك طوالق ثلاثا » . ويعنى ابن عربشاه مؤرخ تيمور[1] عناية خاصة بذكر محتويات الرسائل التى تبادلها الملكان ، ويقول لنا إن تيموراً حينما وقف على هذا القسم الغريب الذى يلقيه بايزيد فى وجهه ثارت نفسه غضباً ، « لأن ذكر النساء عندهم من العيوب ، وأكبر الذنوب » ، فكيف بهذه الإشارة المثيرة إلى نساء الفاتح وحليلاته

وهكذا اعتزم العاهلان أن يخوض كلاهما ذلك النضال الذى يشهره كلاهما فى وجه الآخر ؛ فبادر تيمور إلى الزحف فى جيشه الزاخر شرقاً نحو هضاب الأناضول ، ونفذ إلى مملكة الروم ، واستولى في طريقه على مدينة قيصرية ، ثم اخترق نهر هاليس ، وطوق مدينة أنقرة ؛ وكان بايزيد قد استطاع فى الفترة التى قضاها تيمور فى الشام أن يجمع قواته وأن يستكمل أهبته . وتقول لنا الروايات المعاصرة إن جيش التتار بلغ يومئذ زهاء ثمانمائة ألف مقاتل ، وأن جيش الترك بلغ زهاء أربعمائة ألف ، وهي أرقام هائلة فى تلك العصور وخصوصاً إذا ذكرنا ما كانت عليه وسائل النقل والتموين يومئذ من نقص وصعوبة . وكان الجيش العثمانى يتفوق على جيش التتار بنظامه ، ويمتاز بالأخص بفرق الانكشارية الجريئة ؛ ولكن جيش التتار فضلا عن تفوقه العددى ، كان متفوقاً فى روحه المعنوي . وكانت هذه الانتصارات المتوالية التى أحرزها التتار ما بين السند والأناضول قد بثت فى نفوس الغزاة روحاً من الثقة الوطيدة . ولما وقف بايزيد على مقدم تيمور هرع إلى لقائه فى ظاهر أنقرة ، وكان هذا اللقاء الشهير بين الجيشين العظيمين فى يوم الأربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٨٠٤[2] (أواخر يولية سنة ١٤٠٢) وأبدى بايزيد وجيشه شجاعة فائقة ؛ ولكن سرعان ما دب الوهن إلى قواته ، وانسحب بعضها من الميدان باغراء تيمور ووعوده . وسرعان ما حلت النكبة بالترك فمزقت قواتهم وسحقت ، وأسر بايزيد وعدة من ولده وآله ؛ وفر ولده سليمان فى بقية من الجيش صوب العاصمة ؛ وطارد الغزاة العدو المنهزم ، واستولوا على كوتاهية ؛ ثم زحف محمد سلطان حفيد تيمور إلى بروصه عاصمة مملكة الروم فاستولى عليها ، وعاث فيها ونهب القصور الملكية وسبى حريم السلطان ، وفر سليمان إلى الشاطىء الأوربى حاملاً ما استطاع إنقاذه من خزائن أبيه . وسحق ملك بنى عثمان تحت سنابك الغزاة مدى حين

وهنا تعرض للحرب صفحة فى تلك المأساة الشهيرة ، فان ابن عربشاه مؤرخ تيمور يقول لنا إن الفاتح التترى سجن بايزيد فى قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك فارس[1] ؛ وهى رواية عربية تؤيدها الروايات اليونانية واللاتينية المعاصرة ؛ بيد أن رواية ابن عربشاه ليست فى حاجة إلى التأييد ، فهو مؤرخ معاصر كتب روايته بعد وفاة تيمور بنحو ثلاثين عاماً فقط ، واستقى مادته فى سمرقند ذاتها حيث عاش مع أسرته ردحاً من الزمن وسمع أقوال رواتها وشيوخها المعاصرين لتيمور ، واستقاها كذلك من بلاط السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد ، حيث قضى فى خدمته حيناً وتقلد لديه ديوان الانشاء ، واطلع على جميع المصادر والوثائق التركية والفارسية التى تتعلق بسيرة تيمور وغزواته ؛ وإذن فليس فى روايته عن القفص الحديدى الذى سجن فيه بايزيد ما يدعو إلى الريب

وهنالك رواية أخرى يقدمها إلينا مؤرخ فارسي معاصر ، هو شرف الدين على الذى كتب سيرة تيمور بعد وفاته بعشرين عاماً ، تحقيقاً لرغبة حفيده السلطان ابراهيم . وخلاصة هذه الرواية هو أن تيمور حينما علم بأن السلطان الأسير (بايزيد) قد اقتيد إلى خيمته ، نهض للقائه ، وأكرم وفادته ، وأجلسه إلى جانبه ، وعتب عليه فى لفظ رقيق ، وحمله تبعة ما وقع ، ووعده بصون حياته وشرفه ؛ فتأثر بايزيد لكرم خصمه ، وأعرب عن ندمه وقبل منه خلعته ، وعانق ولده موسى الذى أسر معه والدمع ينهمر من عينيه ؛ وأنزل السلطان وباقى الأمراء الأسرى منزلا حسناً . ولما وصلت زوج السلطان وهى الملكة رسبنا اليونانية وابنتها

(١) في كتابه عجائب المقدور فى أخبار تيمور
(٢) ابن عربشاه (مصر) ص ١٣٠

(١) ابن عربشاه (مصر) ص ١٣٩

وباقي حريم السلطان ، حمل إليه مكرمات ممزوجات . ولما دعى السلطان إلى الحفلة التي أقامها تيمور ابتهاجاً بالظفر ؛ وضع تيمور التاج على رأسه ، ووعده برد عرشه وملكه ، ولكن السلطان الأسير ما لبث أن توفى ، فحزن تيمور عليه وأمر بدفنه بين مظاهر التكريم في المدفن الذي أقامه لنفسه في بروصه ، واختار ولده موسى ملكاً على الأناضول

على أن هذه الرواية لا يمكن أن تنال من الثقة ما تناله منا رواية ابن عربشاه ، فهي على ما يلوح رواية قَصْرٍ أريد بها تمجيد ذكرى الفاتح وعرض مناقبه . ويحاول المؤرخ الفيلسوف جيبون أن يوفق بين الروايتين ، فيقول لنا إن رواية شرف الدين في شقها الأول صحيحة لا ريب فيها ، فقد استقبل تيمور أسيره برقة وأكرم وفادته ، ولكن بايزيد قابل كرمه بكبرياء وغطرسة ، فاستاء تيمور واعتزم أن يقود أسيره في ركبه الظافر إلى سمرقند ؛ ولكن محاولة بذلت لإنقاذ الملك الأسير حملت تيمور على التشدد في معاملته ، فزج به إلى قفص من الحديد ، اقتداء بما قرأه في بعض السير القديمة من أن سابور أحد ملوك الفرس وقع في قبضة قيصر فسجنه في قفص من الحديد[1] . ويضيف ابن عربشاه إلى ذلك أن تيموراً أراد أن يذهب في التنكيل بأسيره إلى ذروة القسوة والمهانة ، فدعاه ذات يوم إلى حفل أنس عقده ؛ ولما جاء دور الشراب ، التفت بايزيد فإذا بنسائه وجواريه يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام عيني مليكهن ؛ وقد كان ذلك من تيمور مبالغة في الانتقام من خصمه والتشفي منه لما اجترأ عليه من ذكر النساء في مكاتبته[2] . وقد كان لهذه الآلام المادية والمعنوية أثرها في الملك الأسير ، فلم يمض على محنته بضعة أشهر حتى توفي في غمر الحسرات والأسى ، وكانت وفاته في مارس سنة ١٤٠٣ م

وكانت هذه أيضاً آخر غزوات تيمور وانتصاراته ؛ فلم يمض قليل على عوده إلى مملكته حتى لحقه المرض وتوفي في شهر فبراير ١٤٠٥ ؛ وكانت وفاته نذير انحلال ذلك الصرح الشامخ الذي شاده بعبقريته وظفره وسعد طالعه

محمد عبد الله عنان

(١) جيبون : Decline and Fall of the Roman Empire الفصل الخامس والستون

(٢) ابن عربشاه ص ١٣٣

عبرة السيرة

بين يدي « العدد الممتاز » من الرسالة

للأستاذ علي الطنطاوي

إن مائة ألف قارىء في مشارق الأرض ومغاربها ، سيأخذون (غداً) العدد الممتاز من (الرسالة) وسيقرؤونه وسيحيي في نفوسهم هذه الذكرى العظيمة المحبوبة التي نقف عندها في كل رأس عام هجري ، كما يقف المُصْحِر في واحة مخضرة ظليلة... نتنشق منها عبير المجد ، ونتسمع أغاريد النصر ، ونجتلي في طلعتها طيف الأيام الباسمة التي كان من قطوفها ألف معركة ظافرة حملت غارها الراية الاسلامية ، وألف مدرسة وألف مكتبة نالت نخارها وجنت ثمارها البلاد الاسلامية ، وكان من حصادها هذه الحضارة التي نعمت في أفيائها الانسانية ، وكانت إحدى الحضارات العالية الثلاث بل كانت أسماها (من غير شك) وأحفلها بالعظمة والفضيلة والحق !

نقف كل عام لنحيي ذكرى الهجرة ونحييها ، فنكتب فيها ونقرأ ونذكر ونتأمل ، ونرتفع على جناح هذه الذكرى إلى جوّ عال من العظمة والفضيلة والشرف ، نبقى فيه ما بقي المحرّم ، فإذا مر مر معه كل شيء : صوّخت الآمال ، وهجعت الذكريات ، وعدنا نتخبط في سواد اللجة ... لا نربح من هذه الذكرى إلا ما يسيل على أقلام أولئك الأعلام البلغاء من طرائف البيان يحويها عدد الرسالة الممتاز ، ولا نفيد من المحرم إلا ما (قد) نقرؤه في الصحف والمجلات من القصص والقصائد والمقالات . وكثير مما يكتب في العدد الممتاز ، وبعض مما ينشر في الصحف والمجلات ، قيم ثمين ، نعتده ثروة جديدة تضم إلى آدابنا الغنية الحافلة بثمرات القرائح الخصبة المرعة في الأعصار الطويلة ، ولكن ذلك لا يكاد يجدي علينا في نهضتنا إذا نحن لم نحي هذه الذكرى إحياء ، ونكتبها مرة ثانية على صفحات الوجود ، ونأخذ منها عبرة تنفعنا في نهضتنا ، وهذا ما أنشيء له العدد الممتاز ، وهذا ما يراد من إصداره .